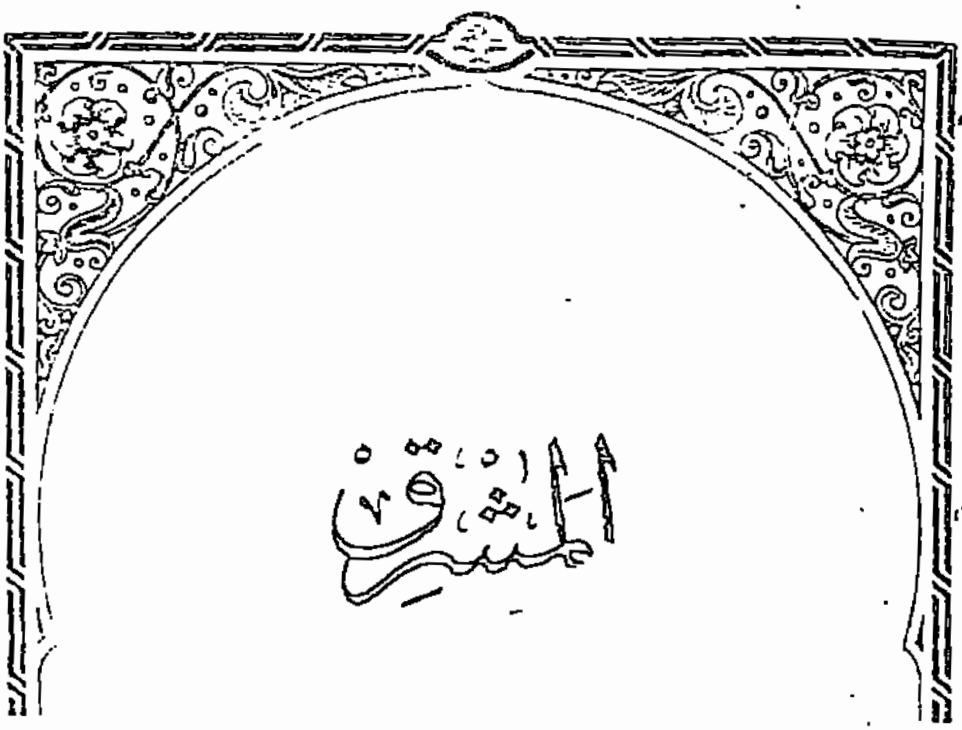

السنة الخمسون
آذار – نيسان ١٩٥٦

تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

وفي خريف السنة ١٥٦٩ لليونان (١٢٥٨ م) وصل بايجو نوين الى الموصل ولم يعث بضواحيها كثيرًا لان الملك الصالح بن بدر الدين صاحبها كان يومئذ قد عاد من خدمة هولاكو وزُفّت اليه تركان ابنة جلال الدين خوارزمشاه واقامت لديه بزيّ النساء المغوليّات . اما المواصلة فقد انهزموا واختفوا جميعاً ريثما انكشف عنهم بايجو . ثم ان علي بهادر بعدما عبر بايجو دجلة انقلب الى ملطية فاغلق اهلها الابواب ولم يمكّنوه من الدخول لانهم سبقوا فحالفوا ركن الدين . (٥٠٠) فحشد جيشاً من الأجاجرة ونقّم يحاصر المدينة وأمسى اهاليها في خوف وفي جوع شديد حتى صار قفيز الملح باربعمائة قرش سلطانيّ والحنطة بسبعين . واشتدّ الجوع والضيق على الاهالي حتى انهم وثبوا في احدى الليالي

وفتحوا ابواب المدينة وادخلوا اليها بهادر واصحابه فاصعد الى منابر الجوامع جماعة ينادون بالامان للعرب والنصارى معاً . وطمأنهم قائلاً : انه ينبغي محاكمة الزعماء لا الاهالي . وعند الصباح قبض على مملوك ركن الدين وحبسه واركب شهاب الدين العارض على جحش حقير وطوفه في ملطية ساخراً ثم قتله . وشدّ في رقبة المعين ايكدباشي حبلاً وربطه في عنق كلب ومشاه في الاسواق . ثم قتله . وقتل كذلك قالويان القسيس اليوناني واخويه باسيل ومنوئيل وابنه كيريوري وكانوا من كتبة الديوان وقتل معهم ثلاثة ابناء شهاب ابي الامراء الاكراد . وبعد هذا كفّ عن القتل واستتبّ الامن الا ان الجوع تفاقم جداً في ملطية وبلدها لان اللصوص التركمان عاثوا فيها واتلفوها . وافضى الامر بالكثيرين الى ان يبيعوا بنيهم وبناتهم في سبيل قوتهم . واخذ بعضهم يتقوتون الاحذية العتيقة ويسلقونها ويأكلونها . ورأوا امرأة تشوي ابنها ولما حاكموها أقسمت انها لم تقتله لكنها شوته بعد موته . وشاهدوا كذلك جماعة من النساء قدامهن جثة ممدودة وهنّ يشرحن لحمها ويشوينه ويأكلن .

ولما عرف بهادر انه لن يتمكن من مقاومة (٥٠١) التتر ترك المدينة وهرب يريد السلطان عزّ الدين . وهرب معه حسام جوبان وبرصوما بن اندراوس الذي قُتل فيما بعد في الطريق . وفي اثناء هذا الجوع ثار بعض شبان نصارى من جوباس واقبلوا الى قرية عبرا وجعلوا يغزون ويقتلون اخوتهم النصارى ويدخلون البيوت ويأكلون .

وفي تلك الغضون مرض توذورس بن قالويان ملك نيقية في مدينة نيقي ولمّا شعر بدنوّ الاجل استدعى اليه البطريرك ارسانيوس واستودعه تدبير ابنه قالويان وتربيته . لانه كان صغيراً بعد . وكان في خدمته بطريق يقال له ميخائيل باليولوغس وكان يخاف ان يتغلّب على المملكة ويستحوذ عليها قسراً . وقد صحّ ذلك . فأمر الملك غاريبوس البطريق ان يذهب الى تسالونيقي ويأتيه بميخائيل موثقاً . فذهب اليه وقال له : اني عارف انك ستكون انت الملك فكن حكيماً وأسلم نفسك اليّ وهلمّ معي الى الملك . فاذا شاهد خضوعك له أطلقك وعظّمك . فامتثل ميخائيل المشورة وسار الى الملك موثقاً ولم يبدِ تشكياً . فصدّقه الملك ورقّ له واطلقه واقامه شريكاً للبطريرك في تربية الفتى

قالويان . وبعد مدة وجيزة توفي الملك وكان له حين كيراپوليا وفاة صهره على ابنتها يقال له موزالون . وهو الذي شيّع الملك الى دير مغنيسيا ولحده في ضريح آبائه . واقام اياماً في ذلك الدير يفاوض حماته اخت الملك المتوفى كي يتولى هو عرش المملكة ويملك الزعماء الذين يخالفونه . فشعر ميخائيل (٥٠٢) وبقية الزعماء بالدسيسة وأمر جماعةً من جند الفرنج ان يقصدوا الدير ويفتكوا بموزالون حيثما هو . فساروا وشاهدوه يصلّي في الكنيسة فذبحوه إرباً إرباً . ثم نادى الزعماء بصوتٍ عالٍ قائلين : فليحيَ ملك اليونان ميخائيل باليولوغس ! فليحيَ اوطوقراطور رومانيا ميخائيل باليولوغس ! ومن هناك ساروا جميعاً الى نيقية واعتقلوا الطفل قالويان وارسلوه فسجنوه في احدى القلاع ، ونفوا البطريرك ارسانيوس الذي عنّفهم على فعلتهم وسجنوه في احدى جزائر بحر البنطس .

وما مرّ القليل على جلوس ميخائيل حتى اعتزم ان يزحف الى قسطنطينية وقد بلغه ان ليس عند الملك بغدوين الفرنجي الا القليل من الجنود . فارسل واستقدم اليه نيقيفورس مطوان افسس وولّاه البطريركية في غاليبولي بدلاً من ارسانيوس المنفيّ . وارتحل من هناك الى قسطنطينية ولم يتمكن من اخذها لان اهاليها اتفقوا مع الجنود ووقفوا على الاسوار وحاربوه بشدة وبسالة . فتركها وعاد راجعاً خائباً . وبعد مدة وجيزة ثارت فتنة بين تجار الفرنج البنادقة والجنويين في عكة واتفق الفيزنيّون مع البنادقة . ولمّا سمع البنادقة ساروا من كل الاطراف الى مساعدة رفاقهم وفرغت منهم قسطنطينية كذلك . واحتال ميخائيل حيلةً اخرى بان اشار الى متولّي بعض قلاع الروم ان يتظاهر بالعصيان ويبعث الى بغدوين ليبذّه بالعسكر كي يسلّمه تلك القلعة . فامتثل الامر وخدع بغدوين واطاعه . فارسل اليه (٥٠٣) فرقةً كانت لديه . وعند ذلك تهيأ ميخائيل وبادر الى المدينة وحاصرها . وفاوض بعض الاهالي ففتحوا له ليلاً باباً عتيقاً لم يُفتح منذ عهد قسطنطين الظافر . فدخل اليونان والتحم القتال وتمكن بغدوين من النجاة مع اهل بيته وركب سفينة صغيرة والتزم الى بلاد الفرنج هكذا عادت قسطنطينية الى اليونان بعدما ظلّت في حوزة الفرنج ثلاثاً وخمسين سنة .

اما نيقيفورس البطريرك الدخيل فلم يعش كثيراً لان المنية عاجلته واقام

ميخائيل بدلاً منه روماس مطران ادرنة بطريركاً الا انه مـا عتم ان عزله بسبب اعماله الشائنة الملومة . وارسل فاستدعى من المنفى البطريرك ارسانيوس ووعده بان يطلق قالويان ابن الملك من السجن ويوليه مملكة ابيه سوى قسطنطينية التي احتلها هو بالسيف . فرضي البطريرك ودعا له وعاد الى كرسيه . غير ان ميخائيل بعدما صالح البطريرك زاد شراً فوق شر وبدلاً من ان يُطلق سبيل قالويان ويوليه عرش المملكة ارسل ففقأ عينيه كلتيهما ، فسخط البطريرك واستعفى وعاد الى سجنه . فاستدعى الملك يوسف رئيس الدير ونصبه بطريركاً وما زال في منصبه حتى يومنا .

فتح بابل (بغداد)

وفي ايام الشتاء اذ كانت ملطية متقلبة في اسوأ الحال انحدر هولاكو ملك الملوك الى بغداد واقبل كذلك بايجو من بلاد الروم . فخرج عساكر بغداد ليبارزوا التتر وعلى رأسهم امير كرديّ يقال له ابن كوردار ومملوك الخليفة واسمه الدويتدار الصغير . ومكث (٥٠٤) الفريقان ثلاثة وعشرين يوماً دون ان يحارب احدهما الآخر . ويوم الاربعا ثامن محرّم عام ٦٥٦ وهو العام ١٢٥٨ للميلاد زحف اولاً بايجو نوين وجنوده نحو المكان المدعوّ قبر احمد غربي بغداد وتقدّم البغداديون كذلك والتحم القتال بين الفريقين فانكسر فريق بايجو وانتصر البغداديون . وكان الامير سليمان شاه وجنوده متولّين سور بغداد ، وعند المساء قال الشيخ ابن كوردار للفتى الدويتدار : لقد منحنا الله الآن الغلبة فيجب ان نقصد بيوتنا لنستريح ثم نخرج ثانية للقتال . لكن الدويتدار تجبّر وتكبر ورفض المشورة ومكثوا جميعاً خارجاً . وكان البغداديون مقيمين في ارض منخفضة فذهب التتر وثغروا ثغرة تفجّرت منها مياه دجلة واغرقت البغداديين في نصف الليل . وجعلوا ينهزمون من وسط المياه وقد تبلّلت قسيّهم وسهامهم واغماد سيوفهم . ولما اصبح الصباح انصبّ عليهم التتر اصحاب هولاكو واستغرقت المعركة حتى الساعة التاسعة من يوم الخميس . فانكسر البغداديون وارتحت غزائمهم وقتل ابن كوردار وانهزم الدويتدار الى المدينة .

وعنـد ذلك اقبل بايجو في جنوده وحلّوا غربي بغداد وحلّ هولاكو في

شرقيها يوم الاثنين ١٣ محرم وحاصروا مدينة حصينة شديدًا تجاه دار الخليفة . ولمَّا أيس الخليفة المعتصم التاعس الحظّ استدعى ابن العلقمي وزيره ونجم الدين عبد الغني بن درويس ومارمكيخا الجاثليق وأمرهم ان يأخذوا ذهبًا كثيرًا وبضائع ملكية وخيولًا عربية وان يُطلقوا سفراء التتر من السجن ويوشّحوهم ويسيروا لهم الهدايا الوافرة ويذهبوا معهم الى ملك الملوك ويطلبوا الأمان له (٥٠٥) ولأبنائه وأهله ويعتذروا له بان ما جرى انما جرى على يد مشيرين اشرار . وأنهم ان ظلوا في قيد الحياة أمسوا عبيدًا خاضعين يؤدون له الجزية . ولما سار هؤلاء وأكملوا سفارتهم تبطهم هولاكو ولم يأذن لهم ان يعودوا الى الخليفة وشدّد القتال . وثغر التتر ثغرة كبرى في البرج العجمي ودخلوا المدينة يوم الجمعة ٢٥ محرم فقاومهم البغداديون وهزموهم ثانية . ثم تقوّى التتر في اليوم التالي اعني يوم السبت واحتلوا الأسوار كلها . فانهزم البغداديون واختفوا في البيوت والسراديب . وخرج في اليوم عينه ابنا الخليفة كلاهما وقصدا هولاكو وتبعهما الخليفة عينه بعد ساعة . فأمر بان يُعتقل واقام حفظةً يحرسونه في احدى الخيام مدة سبعة ايام . وتوجّه هولاكو نفسه الى دار الخليفة واطلع على الخزائن والمطامير والذخائر القديمة والحديثة واستولى عليها برمّتها . واستلّ المغول سيوفهم واجهزوا على ربوات من البغداديين يساعدهم خصوصًا الكرج في تلك الملحمة الهائلة .

امَّا الجاثليق فجمع النصارى كلهم في كنيسة السوق الثالث وصانهم هناك ولم يلحق أذى باحد منهم . ونقل اغنيا العرب اموالهم وامتعتهم الى دار الجاثليق يؤملون النجاة ولكنهم قُتلوا عن بكرة ابيهم . ولما اطمأنَّ ملك الملوك استدعى اليه الخليفة المنكود الحظ وحاكمه وقضى عليه بالموت وأمر فجعلوه في غرارة وخاطوها ورفسوه بارجلهم حتى مات . على ان بعض العرب خوَّفوا هولاكو بقولهم : إن أُريق دم الخليفة على الارض فلن ينزل عليها مطر بل ان جمرات النار تشتعل منه . وانقطعت خلافة بني العبّاس وتضعضعت سائر ممالك العرب (٥٠٦) وتوطدت مملكة المغول وتعززت في جميع البلاد الخارجية والداخلية .

ثم ان التتر انقلبوا من بغداد وزحفوا الى قلعة اربيل وعوّل الصاحب ابن

صلايا ان يسأمها لكنّ الاكراد العصاة تهدّدوه فتركهم وانهزم وانضمّ الى التتر . وبعد هذا اقبل بدر الدين لؤلؤ واشترى القلعة وكل ما فيها من التتر بمبلغ سبعين الف دينار . ثم ارتحل التتر وتولّى بدر الدين القلعة واقام فيها الحفظة. وما عتم ان حصّل الامير الكرديّ شرف الدين جلالي امرًا من ملك الملوك وانتزع القلعة منه وطرد الحفظة . وسار مع التتر ليقاتل الاكراد في جولمرك . عندئذ وجّه بدر الدين بعض الاكراد ففتكوا به وهو راقد في خيمته . وتولّى اربيل رجل نصرانيّ اسمه المختصّ وهو اخو الصفيّ سليمان الطبيب الكبير . وخلفه بعد موته ابنه تاج الدين عيسى وكان رجلًا مؤمنًا كريمًا .

وحدث يومئذٍ جوع شديد ووبا. تتال في اطراف بغداد وآثور وما بين النهرين وسورية وبلاد الروم حتى بيع في دمشق فروج لاجل مريض باثني عشر ناصريًا .

الحقبة الحادية عشرة المنتقلة من ملوك العرب الى الملوك الهونيّين

هولاكو ملك الملوك واخو مونككا خان الكبير .

بعدما قُتل الخليفة المستعصم ولّى ملك الملوك على بغداد رجلًا يقال له عليّ بهادور . وفي اثناء الحرب ارسل نصارى تكريت الى الجاثليق يطلبون شحنة لحراستهم ففي طلبهم . ولما زحف التتر وقتلوا (٥٠٧) زعماء العرب ونهبوا اموالهم احتشد النصارى قاطبة في الكنيسة الخضراء المؤسسة على اسم احودامه وقد احتمّها العرب فلاذوا بها . ومكثوا دون اذى من بدء الصوم حتى احد الشعانين ١٧ آذار ١٥٦٩ (١٢٥٨ م) لليونان . واتفق ان ابن دوري العربيّ اللئيم افترى على النصارى وقال للشحنة : ان العرب قد اخفوا عندهم اموالا طائلة ولم يؤدّوا لك منها شيئًا . فاستفسر الشحنة كبار النصارى فأقرّوا بالحقيقة وأحضروا اليه كلّ الاموال . وارسل الشحنة فأخبر هولاكو فاصدر الحكم بقتل جميع التكريتيين طبقًا لناموس المغول . ووجّه زعيمًا كبيرًا في جيش من التتر فجعلوا يأخذون عشرين فعشرين كأنهم يمضون بهم ليقوّضوا القلعة ويفتكون بهم . وظلوا كذلك حتى افنوهم قاطبة ولم يفلت الّا الشيخ والعجوز. امّا البنون والبنات فقد استاقوهم جميعًا وأجلوهم . وعاد العرب فانتزعوا

الكنيسة الكبرى من النصارى . ولم يبقَ في تكريت سوى قسيسين كرسونيين فقط يتيمان الصلاة في سائر الكنائس مع قسٍّ من النصارى . اما ابن دوري صاحب الوشاية فقد فتك به بهرام النصرانيّ الذي تولى شحنة تكريت .

اما بدر الدين صاحب الموصل فلما اطلع على احتلال هولاكو لبغداد وجّه اليه ابنه الملك الصالح في الف فارس تحفةً له . فلم يقابله هولاكو مقابلة حسنة بل قال له : انكم انتظرتم ريثما تتفرق على من يكون المنتصر فتتبعونه . فلو انتصر الخليفة لتبعتموه دوننا . ولما عاد الصالح الى الموصل واخبر والده تخوّف ونهض من ساعته واخذ كمية وافرة جداً من الاموال وانطلق بذاته فزار هولاكو وراضاه وعاد مطمئناً بعد ما لحقه من الخوف ما لحقه . واستأمن بدر الدين الى هولاكو حتى (٥٠٨) انه صعد الى تخته الملكيّ ووضع في اذنه حلقةً فيها درّة غالية الثمن .

وعلى اثر احتلال بغداد افتكر الاشرف بن الملك الغازي بن العادل الكبير صاحب ميافرقين ان يناهض التتر . وعلق قسيساً سريانياً من بلد بدليس كان قد اتاه من الخان الكبير بالفرمان وطرد كذلك الحكام التتر من عنده . ثم توجّه الى دمشق وسأل الملك الناصر ان ينجده ليقاتل التتر ويمنعهم عن الزحف الى سورية ويُبعدهم ان امكن من بغداد كذلك . فاستخفّ الملك الناصر برأيه وانقلب عائداً الى ميافرقين بلدته . وعند ذاك ادركته عساكر المغول واحاطت به عجول باسان وعلى رأسهم اشموط ابن ملك الملوك . وابتدوا سوراً واقاموا ابراجاً وجعلوا يُغيرون من الخارج حرباً شديدة ويقاتلهم من بالداخل بشدّة اقوى . وظلّت كذلك مدّة سنتين لا يقوى التتر على اخذها . غير انهم بعدما دوّخوا بغداد وحاصروا ميافرقين تتابع الوفود من لدن هولاكو الى الملك الناصر يقولون له ليذهب الى خدمته . لكنّ زعماءه لم يرضوا بذلك . فوجّه ابنه الملك العزيز في تحف وهدايا وافرة في خريف السنة ١٥٧٠ لليونان (١٢٦٩ م) واقام هناك الشتا . كله وعاد في الربيع الى حلب بعد عيد القيامة وقال لابيه : ان ملك الملوك أمرني وقال لي : اننا لم نطلبك انت بل طلبنا اباك . فاذا كان مسالماً لنا فليأتِ والّا فنحن نسير اليه . فاستمرّ الملك الناصر يعرج على الجنبين لا يتيسر له البقاء خوفاً من التتر ولا الذهاب خوفاً من

زعمائه وعبيده . فبقي متحيّرًا خائفًا مذعورًا .

(٥٠٩) وفي تلك الاثناء سيّر هولاكو في طلب السلطان عزّ الدين واخيه ركن الدين ليذهبا الى خدمته فاطاعاه ومشيا اليه وأحسن قبولهما . وتقدّم اليهما بان يتولّى عز الدين من قيسارية الى تخوم ارمينية الكبرى وركن الدين من اقسرا حتى ساحل البحر بحدود اليونان . ثم انحدر الاخوان مسرورين مع هولاكو حتى بلغوا ما بين النهرين من هناك عادا الى بلادهما واقام ركن الدين في سبسطية وعزّ الدين في قونية .

وفي هذه المرة زار عز الدين دير مار برصوما ووعد البطريرك ديونيسيوس (١٢٥٢–١٢٦١) وعودًا طيّبة . وفي هذه السنة مات بدر الدين صاحب الموصل في ٢٠ تموز وخلفه ابنه الكبير الملك الصالح اسمعيل وتولّى علاء الدين ولده الوسطاني سنجار وولده الصغير سيف الدين جزيرة قردو .

وفي خريف السنة ٦٥٨ للعرب وهي السنة ١٥٧١ لليونان (١٢٦٠ م) انحدر هولاكو في اربعمائة الف فارس الى بلاد ما بين النهرين ونزل اوّلًا على خرّان وتسلّمها بالامان ولم يؤذِ اهلها وهكذا تسلّم الرها كذلك . اما اهل سروج فلم يرسلوا ويطلبوا الامان فقتلوا عن اقصاهم . وامر هولاكو فنصب جسرًا على الفرات في ملطية وفي قلعة الروم وفي البيرة وفي قرقيسيا . وعبرت العساكر بامرها الى سورية وعبر كذلك هولاكو مع طوقوز خاتون الملكة المؤمنة المحبة للمسيح .

وحدث قتلٌ كثير في منبج وتفرّقت العساكر على قلعة البيرة وعلى قلعة نجم وقلعة جعبر والرقة وبالس وقُتل (٥١٠) جميع من كان فيها . وأقبل اولًا نفر قليل من العسكر الى قرب حلب وخرج اليهم الملك المعظّم الشيخ ابن صلاح الدين والتقاهم فانكسر وانهزم الى المدينة وسار بعض التتر الى المعرّة واخربوها . وبلغوا الى حماة وتسلّموها بامان وكذلك حمص . اما الملك الناصر فاخذ نساءه وابناءه وعبيده وغادر دمشق الى برّية الكرك والشوبك . وزحف التتر الى دمشق وتسلّموها بامان ولم يلحقوا اذًى باحد . اما هولاكو فقد نزل على حلب بنفسه وأمر فايقنوا عليها سورًا يحدق بدائرتها كلّها . وحاربها حربًا عنيفة . وبعد ايام معدودة استحوذ على الاسوار التي بجانب باب العراق ودخل المدينة يوم

احد مدخل صوم نينوى ٢٣ كانون الثاني من تلك السنة . وقتل فيها اكثر من قتلوا في بغداد .

اما كنيستنا فقد سبق البطريكيون فقوّضوا سقفها وكنتُ يومئذٍ انا الحقير مطرانها فلشدّة الخوف خرجت وسرتُ الى خدمة هولاكو وحُبستُ في قلعة نجم . واصبح شعبنا الحلبي دون راعٍ فانطلق اغلبهم الى كنيسة اليونان فهجم عليهم التتر وفتكوا بهم وسبوا بقيتهم . واخيراً نهض القسيس تورس الارمني ابن اخي الجاثليق مار قسطنطين واتفق معه الراهب كيورك فقصدا التتر وأعتقا البقيّة الباقية ومضيا بها الى كنيستنا .

وبعدما احتلّ التتر المدينة صوّبوا الحرب نحو قلعتها وأخذوها بالامان . ثم توجّه هولاكو الى حارم وسأل اهاليها ان يسلّموا وهو يحلف لهم بانه لن يؤذي احداً منهم . فلم يطمئنوا الى قوله لسخافة عقلهم مدّعين انه لا دين له ومقرّرين ان يحلف لهم فخر الدين البوالي فيهبطوا ويسلّموا (٥١١) فتقدّم هولاكو اليه فسار اليهم وحلف لهم . حينئذٍ فتحوا ابواب القلعة وانحدروا . وأمر ملك الملوك فقُتلوا باسرهم رجالاً ونساء وابناء وبناتٍ ورضاناً ولم يفلت منهم الّا رجلٌ حدّادٌ ارمنيّ . وقتلوا كذلك فخر الدين المذكور لان وليّ الدين بن صفي الدين زعيم حلب ادّعى بانه هو الذي قتل اباه واخوته لانهم لم يسلّموا المدينة . وبعد ما فرغ هولاكو من ذلك كله اقام في فلسطين زعيماً يقال له كتبوغا ومعه عشرة آلاف فارس . وعاد في الطريق التي قدم بها ووصل الى تلّ باشر وبلغه ان التتر احتلوا ميافرقين وقبضوا على الملك الاشرف صاحبها واحضروه اليه وهناك فتك به . وولّى عليها رجلاً اميراً من امراء الاشرف يقال له عبدالله . وحدث فيها جوع فظيع لم يُسمع له مثيل حتى انه لم يبقَ من اهاليها جميعاً سوى مائة نسمة لا غير وقد احتاها التتر بعد عنا . جسيم .

وحكى لي احد اعيان ميافرقين الذي افلت منها افلات المحراك من اتون النار قال : اشتهيت يوماً ان آكل طعاماً من حنطةٍ ولحم بقر مع أهلي فدفعت خمسمائة غرش ناصريّ حتى تمكنت من طبخ قدرٍ واحد كافٍ لجميعنا .

ولما عبر هولاكو الفرات ارسل الى صاحب ماردين ليزل اليه فأبى . فارسل اليه ابنه الملك المظفّر وكان معه هو وبدر الدين صاحب الموصل في حصار حلب

وقال له : اذهب فانصح لوالدك كي يتزل ولا يتمرّد فيهلك . ولما وصل الى ابيه وخاطبه لم يلبِّ طلبهُ بل قيّده وحبسه عنده . وعند ذلك احاط المغول بماردين وابتدأوا بالقتال (٥١٢) ولولا ان وقع فيها الوبا. بسماح الله سبحانه لما تيسَّر لهم ان يأخذوها . فقد مات اغلب اهاليها ومات صاحبها كذلك وعاد ابنه الملك المظفّر الى هولاكو وسأله القامة فاكرمه وأحسن اليه واحبَّه جدًّا واستخلفه موضع ابيه .

اما كتبوغا فلم يزل يبحث عن مكان الملك الناصر في البرّية حتى وجّه اليه الجيش فادركوه وقبضوا عليه واتوا به اليه فسيّره الى ملك الملوك مخفورًا. ولما مثل بين يديه فرح به واكرمه ووعده بان يعيده الى ملكه .

وفي تلك الايام سار من قلعة الروم الى خدمة هولاكو الترجمان شمعون القسيس المتوفى . فرحّب به اجمل ترحيب واحبه جميع ابنا. الملوك والملكات. واقتنى دورًا ملكية وحدائق وجنانًا وحصونًا في مراغة وارزاقًا في بغداد واثور وقبدوقية وفي مراغة بلغ مجموعها في كل سنة خمسة آلاف دينار . وقد تعزّز به شعبنا القليل وحُفظت كنائسنا وتأيدت في كل مكان على يده .

اما قوتوز التركي الذي تولى مصر فلما بلغه ان هولاكو ابتعد عنه وان الملك الناصر قد قُبض عليه وأُرسل اليه ولم يبقَ في فلسطين الا كتبوغا بعشرة آلاف فارس حشد جيوش مصر وزحف الى مرج باشان تجاه جبل تابور وقاتل التتر وانتصر عليهم . وقتل كتبوغا واستأسر اولاده وكان ذلك في ٢٧ رمضان من السنة ٦٥٨ للعرب (١٢٥٩ م) . فغضب هولاكو لما بلغه الخبر ونوى ان يستأصل شأفة الدولة العربية وتقدم بقتل الملك الناصر وقتل اخيه الملك الظاهر وجميع مَن معهما . وتمّ ذلك يوم الاربعا. (٥١٣) في ٢٠ شوال عام ١٥٧١ لليونان(١٢٦٠ م) في الساعة التاسعة في بخاضة نوشهر والقمر في برج عطارد . ولم يُفلت الا محيي الدين الفلكيّ المنجم وقد حكى لي يقول : اني لما كنت يومًا لدى الملك الناصر في خيمته استدعاني اليه وسألني عن مولده ووصل اذ ذاك امير من المغول نحو الظهر ومعه نحو خمسين مغوليًّا وخرج الملك الناصر الى لقائه فقال له الامير : اننا قد أدبنا اليوم مأدبة لدى ملك الملوك وهو يقول لك ان تحضر انت واخوك واولادك وزعماؤك . فنهض الملك الناصر واخذ معه جماعته

وحشمه وهم نحو عشرين نفراً وركبوا وساروا . وبعد قليل وصل عشرون فارساً الى خيامنا وقالوا : فليحضر الفرسان والكتبة ولا يبقى غير الخدام ضاربي الخيام والطباخين والرعاة . ولما ركبنا مضوا بنا ما بين اودية عميقة وانزلونا حيث كان عظماء المغول وغيرهم ممن كانوا واقفين امامهم . ولما دنونا وجعلوا يحادثوننا وثب المغول حالاً من ورائنا واحتاط كل واحد منهم بواحد منا . فاشرتُ انا الى الزعما . باني فلكيّ عارف بحركات الكواكب فاستدعوني وأجلسوني وراءهم واستاقوا البقيّة بعيداً وذبحوهم . وقتلوا كذلك الملك الناصر واخاه والزعما . ولم يقتلوا ابناءه وما برحوا الى هذا اليوم مأسورين . ثم ذهبوا فاحضروا الصغار الباقين في الخيام وأجهزوا عليهم كذلك .

جلوس قوبلاي خان على كرسيّ مملكة المغول

تمرّد في هذا الزمان ملك من ملوك الصين اعني الخطا او المتزيين وعصى على المغول . وكان لديه عساكر كثيرة يحكم (٥١٤) فيما قيل على اربعمائة مدينة . فاضطرّ مونككاخان ان يحشد جيوشاً ضخمة ويستعدّ لملتقى ذلك الملك الصينيّ بذاته . واستصحب اخاه قوبلاي الصغير ودخل بلاد الصين الجوّانية وترك مكانه اخاه اريغبوكا الاصغر . واتفق انه في اول الملتقى اصابه سهم ومات . فاخذ اخوه قوبلاي جميع العساكر التتر وخرج من بلاد الصين الداخلية واقام خارجاً في مدينة كبرى تدعى خان باليق واتفق عظماؤه بان يكون هو الخان . اما اخوه اريغبوكا الصغير فقال انه هو الأولى بالمملكة مدّعياً بان مونككاخان لما سافر الى الحرب سلم اليه المملكة في حياته . وحصلت منازعة ومقاومة شديدة بين الاخوين استغرقت سبع عشرة سنة الى ان عجز الاخ الصغير وقبض عليه وانتهى امره . وافضت المملكة الى قوبلاي خان الملك العادل الحكيم المحبّ النصارى وكان يكرم الكتّاب والعلما . والاطبا . من جميع الامم .

اما قوتوز فبعد ما قتل كتبوغا استولى على دمشق وعلى حلب وعلى سورية باجمعها واقام في كلّ مدينة حاكماً وكتبة وعاد الى مصر ليحشد الجنود ويعود الى محاربة التتر قاطبة . ولما وصل قريباً من غزة نهض عليه بيبرز المعروف

بالبندقدار الصغير مملوك البندقدار الكبير وقتله . وزحف الى مصر وتسلمها ولقبوه الملك الظاهر ركن الدين . وانهزم اليه يومئذٍ صاحب سنجار اعني علاء الدين بن بدر الدين صاحب الموصل فولاه حلب . وقد شدّد البندقدار على جميع النصارى الذين في سواحل البحر وما برح يضيّق عليهم حتى يومنا . فاحتلّ (٥١٥) جميع قلاعهم ولم يترك لهم الا عكّة وطرابلس وصور فقط.

وفي السنة التالية وهي السنة ١٥٧٢ لليونان (١٢٦١ م) عاد التتر الى سورية وعلى رأسهم كوكالكي نوين ووصل الى حمص وسبى وقتل . وكان قد انهزم جميع اهل قرى سورية الى حلب فامر كوكالكي ان يخرجوا جميعاً الى ظاهر البلد وينعزل اهل كل مدينة وقرية ويعودوا الى بلادهم . ولما امتثلوا الامر أجاز عليهم قاطبةً ولم يترك منهم الا ابنا. حلب فقط . وقال لبقيتهم : لو كنتم تحبوننا لما انهزمتم من امامنا . وبعد هذا عاد كوكالكي من سورية وعبر الفرات فاقبل المصريون تكراراً واحتلوا بلاد سورية كلها .

وفي صيف هذه السنة سيّر علاء الدين بن بدر الدين صاحب سنجار رسالة من مصر الى الملك الصالح اخيه صاحب الموصل يعرّفه قوّة المصريين ويشير عليه ان يترك هنيهةً الموصل ويتوجّه الى مصر حتى اذا ما انتصر البندقدار على التتر يملكه لا الموصل فقط بل بلاد المشرق كلها . ولما كان ذات يوم ابن يونس صاحب بدر الدين لدى الملك الصالح مدّ يده تحت الطنفسة وغافله وخطف الرسالة المذكورة وخرج من عنده وسار الى بعشيقا قريته . وبعد ساعة فتش الصالح عن الرسالة فلم يعثر عليها فعرف ان ابن يونس قد اخذها . فارسل حالاً عبدين من عبيده في طلبه . ولما وصلا اليه عرف ان قد قضي عليه وانه اذا وقع في قبضة الصالح فسيهلكه . بناء عليه جاد على العبدين بالجائزة واشغلها بالشرب وقال لها : كُلا واشربا وتمتّعا في هذا المساء. وعند الصباح نذهب معاً الى الموصل . ولما سكر العبدان نهض ابن يونس ليلاً واخذ أهله وركب وسار الى برطلي وقال للزعيم عبدالله (٦١٦) بن كوشو بلّغ اهلك واهربوا جميعاً لان الصالح مستعدّ ان يقتل النصارى وينهزم الى مصر . فقام كلّ من أمكنه الهرب وانهزموا الى اربيل في ايّام العنصرة . ولما نهض العبدان وقت الصباح ولم يشاهدا ابن يونس تبادر الى ظنّهما انه سبقهما الى الموصل فعادا واخبرا

الصالح . فتخوف جداً وقال يعبر ان ابن يونس سيقصد التتر ويأتي بعسكر يقبض عليه . فنهض واخذ ابنه علاء الملك وعبيده وانهزم الى سورية في اول تلك السنة . ووقع الخلف بين عبيده في الطريق فتركوه وعادوا الى الموصل وتولى رئاستهم علم الدين سنجر . ولما وصلوا الى المدينة اغلق الواصلة تجاههم الابواب بالاتفاق مع ياسان شحنة التتر وتركان خاتون الخوارزمية التي لم تذهب مع الصالح . وظلّ العبيد اياماً قليلة يُحاربون المدينة . وكان فيها يومئذٍ رجل اسمه محيي الدين بن زبلاق اتفق معه جماعة من أحياء الموصل وفتحوا لهم الباب فدخل علم سنجر واصحابه وانهزم ياسان ورفاقه وتحصنت تركان خاتون في القلعة . ولما دخل هؤلاء الموصل اضطهدوا النصارى اضطهاداً شديداً وانتهبوا بيوتهم وأجهزوا على كل من لم يُسلم . وقد جحد كثير من القسوس والشمامسة والرؤساء . والشعب ايمانهم سوى القليلين من آل سوَيد كيت وكوكي ونفيس الصائغ . وعلى اثر هزيمة الملك الصالح انحدر الاكراد الى ضواحي الموصل وفتكوا بكثيرين من المسيحيين واحتلّوا دير الراهبات في بيت خوربدا (قرقوش) واجهزوا فيها على جماعة غفيرة وكانوا قد قدموا اليها من الاطراف واختفوا بها . وسار اولئك اللاعين الى دير مار متى واحتشد هناك ألوف من الفرسان والمشاة ونشبوا يقاتلون الرهبان مدة اربعة اشهر وحاولوا ان يتسلّقوا السور فتشجّع (٥١٧) الرهبان واحرقوا سلالمهم بالنفط . وبعد هذا فصلَ الاكراد قسماً من الجبل العالي ودحرجوا على الدير حجرة ضخمة انفلقت فلقتين وثغرت احداهما السور واغتزت فيه اغتراز الفصّ في الخاتم واستمرّت راسخة . اما الفلقة الثانية فثغرت السور وجازت . وحاول الاكراد الدخول فاحتشد الرهبان واهل القرية المنهزمون وجعلوا يقاتلون بالحجار والسهام ولم يَدَعوهم يدخلون الدير . ثم ابتنوا الثغرة بحجار وجصّ حالاً . وفي تلك المعامع فُقئت عين أبي نصر رئيس الدير وأصيب فريق بالسهام ثم استجمعوا القوى . ولما ضجر الرهبان من القتال طلبوا الامان وارتضوا بان يؤدّوا كل امتعة الكنيسة وآنيتها وان يجمعوا من الاهالي ذهباً وفضة ومصاغاً . اما الاكراد فلما بلغهم ان التتر قادمون حالاً وافقوا الرهبان واخذوا كمية وافرة بلغت قيمتها الف دينار ذهباً وانكشفوا .

وكان اهالي قرية بيت سحرايا يومئذٍ محاصرين في دير الحنافس فارتحلوا عنه وعبروا نهر الزاب يريدون اربيل فلقيهم الامير قوتكو بك واحتج بانهم قادمون من قبل الاعداء فأجهز عليهم قاطبةً رجالًا ونساء معًا .

اما علم سنجر فعندما دخل الموصل بلغه ان التتر قادمون من ناحية الجزيرة فزحف اليهم فشدّوا عليه وقتلوه . ثم اقبل جاسوس التتر وأخبر ان الملك الصالح قادم الى الموصل فتأخروا ولم يدخلوها ريثما يسبقهم اليها الصالح المذكور . اما سيف الدين صاحب الجزيرة فلما بلغه ان اخاه الصالح انهزم الى سورية تأهب هو كذلك للهزيمة فسمع نورين شحنة (٥١٨) الموصل واقبل ليقبض عليه . فاحتشد اهالي الجزيرة وحاولوا ان يفتكوا به فانهزم من وجههم ونجا . وحشد سيف الدين النصارى وطالبهم بالفي دينار ذهباً يوم عيد الصعود . وظلوا محبوسين مأيوسين . ثم وزع ذهباً وافرًا على الجنود واجتمع اليه نحو سبعين الف من الاكراد ومضوا به الى سورية وخلّت الجزيرة دون صاحب . عند ذلك نهض جنديان احدهما عزاز باس وثانيهما محمد راس الحرّس وتوليا الرئاسة واطلقا النصارى من الحبس بعدما اخذا منهم سبعمائة دينار . ولم يفتكا الا برجلين كانا يختلفان الى معسكر التتر .

وفي تلك الغضون حشد عزّ الدين ايباغ صاحب العمادية وهو مملوك بدرالدين زها . ثلاثة آلاف فارس وسار الى الجزيرة ليمتلكها . فزحف اليه نورين المذكور في ثلاثماية فارس عند نهر الديس الذي ينحدر من جبل كردستان فانتصر عليه وهزمه . وكان عبدالله صاحب ميافرقين قد اقبل مرّة ليحتلها فامتنعت عليه .

وفي آخر صيف هذه السنة تأهب عزّ الدين سلطان قونية للقدوم الى خدمة ملك الملوك اذ كان السفرا. يلحّون عليه في ذلك . ولما ضرب خيامه خارج قونية مستعدًا للرحيل واتاه جاسوس يقول له : ان اليناق نوين وصل الى اقسرا ومعه اخوك ركن الدين وفروانا وهما مستعدان ان يرتحلا بالسلاسل ويذهبان بك الى ملك الملوك . فهلع وترك خيامه واخذ بيته واهله وانهزم الى قسطنطينية يريد ميخائيل ملك اليونان . ثم ان اليناق نوين مضى بالسلطان ركن الدين (٥١٩) الى قونية واجلسه على العرش الملكي وتولى تدبيره فروانا .

وفي هذه السنة قصد صاحب مصر شارب سود من سلالة الخليفة ووجهه مع فرقة من الجند الى بغداد ليتولاه ويجلس في تخت آبائه . وأعاد الملك الصالح صاحب الموصل الى ولايته . وذاع الخبر بان التتر قد هلكوا قطبة بضربة سماوية سحقتهم وان الطيور فقأت عيونهم . تلك حكاية لا يصدقها الاطفال انفسهم . ولما شارف الخليفة الاسود بغداد برز علي بهادر في جيشه واجهز عليه . اما الملك الصالح فما كاد يدخل الموصل مساء الثلاثاء سابع كانون الاول حتى وصل المغول بغتة وعلى رأسهم سمداغو المغولي المسيحي الفتى المجيد . واحدقوا بالمدينة صباح الثلاثاء والقمر في برج الأسد . وابتنوا سوراً خارجياً وجعلوا يقاتلون قتالاً عنيفاً . واستغرق القتال حتى الصيف وحدث في المدينة غلاء قاس وارتخت عزائم المقاتلين وخارت قواهم . وجعل سمداغو يبعث اليهم بكلمات طيبة ويعد الملك الصالح وعوداً جيدة . فخرج الصالح في دفوف وطبول والطربون والمشعوذون يغنون ويرقصون امامه . وما ان وصل حتى احدق به جنود المغول ودخلوا المدينة ونهبوها وقتلوا اهاليها وسقوا علاء الملك ابن الصالح خمراً وأسكروه واوثقوا فخذيه بوتر القوس وثقاً شديداً حتى تفجر بطنه وقطعوا حقويه قطعتين وعلقوهما على عتبتي باب المدينة . وقتلوا عامة المحيي بن زبلاق ومضوا بالملك الصالح الى الاردو وقتلوه هناك . وتولى الموصل ابن يونس المذكور . ولما انتهى امر (٥٢٠) الموصل توجه سمداغو الى الجزيرة وابتنى حولها سوراً وجعل يحاربها الشتاء كله حتى الصيف .

واشتهر يومئذ حنتيشوع مطران الجزيرة النسطوري وكان متنبئاً عن ابرشيته . وعد ملك الملوك بانه يطبع له ما شاء من الذهب هذا لخبرته بصناعة الكيميا ثم حصّل منه امراً باطلاق الأمان لاهل الجزيرة واقبل اليها فناهضه ابن عزازباس وحاول ان يقتله فعارضه الزعماء ووعدهم المطران بانه يقصد ملك الملوك ويأتي باوامر منه في تأييدهم . وانطلق وفاز بفرمان يقرّر ان جمال الدين جولبغ عند سيف الدين صاحب الجزيرة يتولى امرها وان عزاز باس ومحمداً رئيس الحرس يكونان وصيّين وان المطران حنتيشوع يكون مشيراً ومدبّراً ومثل أب وعاد الى الجزيرة فطاب قلب اهاليها وفتحوا الابواب . ثم دخل سمداغو وأمر التتر فتوضوا الاسوار في ساعة واحدة ثم ارتحلوا واقاموا في وادي الشمام بارض اربيل .

وفي السنة ١٥٧٤ لليونان (١٢٦٣ م) ارسل سيف الدين صاحب الجزيرة أحد عبيده من مصر الى جمال الدين جولبغ بده الذي كان متولياً بها وسأله ان يبعث اليه بذهب اخفاه في المحل الفلاني . فاستخرج الذهب ودفعه الى العبد فاخذه ومضى الى العمادية ليحادث عز الدين ايبك بما اوصاه مولاه . فأخذه عزّ الدين ومضى به الى سمداغو وهذا ارسل فاستدعى جمال الدين وعاتبه وقال له : اننا نحن قد وليناك وانت قبلت جواسيس مصر دون ان تخبرنا . فانكر عليه ذلك . فاخرج العبدَ القادم من مصر وحكم على جولبغ بالقتل . وبعد قليل توجه الى الجزيرة وقتل ذينك الوصيّين وولّى عليها المطران .

وفي السنة ١٥٧٥ لليونان (١٢٦٤ م) نهض الزكيّ الاربيليّ احد جنود بدر الدين صاحب الموصل وادّعى لدى ملك الملوك بان ابن يونس الذي تولّى الموصل قد سرق اموالاً وافرة من زخائر بدر الدين واخفاها (٥٢١) وهو يحاول ان يأخذها وينهزم الى مصر ولما شعر باني اطّلعت على سرّه سقاني سمّاً يحاول قتلي . ولو لم يعالجني الموفّق التعبيني الطبيب النصراني لهلكت . فسخط ملك الملوك وأمر ان يصفعوا ابن يونس ولما سطحوه سقطت رسالة من عبّه ففتحوها وقرأوها فاذا فيها آية من قرآنهم مؤدّاها : فليكن لسانهم مثقلاً في فمهم والقيود في اقدامهم والاطواق في اعناقهم ونحن نفرح ونُسرّ . فسأل ملك الملوك ما معنى تلك العبارات فقال له خصوم ابن يونس : انها كلمات سحريّة موجّهة اليكم . فأمر بقتل ابن يونس المذكور وولّى مكانه الزكيّ الاربليّ واطلق عليه اسم « الواشي » لانه وشى بابن يونس المذكور .

وفي السنة ١٥٧٦ لليونان (١٢٦٥ م) في اسبوع مدخل الصوم انتقل من هذه الدنيا هولاكو ملك الملوك . ولقد كان متصفاً بحكمته وشهامة نفسه واعماله العجيبة الممتازة . وتوفيت كذلك طقوز خاتون الملكة المؤمنة في اثناء الصيف . وقد شمل المسيحيّين في كلّ العالم حزنٌ شديد على وفاة هذين النبراسين العظيمين المعزّزين للدين المسيحيّ !

بعد هولاكو اياقا ملك الملوك

على اثر وفاة هولاكو ايلخان اتّفق ابناء الملوك والاقطاب المغول معاً على

ان يخلفه اباقا ابنه في عرشه لان الله سبحانه قد زيّنه بالعقل والحكمة والارادة الصالحة والرحمة . ولما استقرّت له المملكة أصبح مشرفاً في كل حروبه ومنصوراً على جميع أعدائه . وأحبّه جميع الشعوب الخاضعين لدولته .

وفي السنة ١٥٧٦ المذكورة (١٢٦٥ م) أقبل اقسميوس (٥٢٢) بطريرك اليونان الانطاكي مستصحباً ابنه ميخائيل بالبولوغس ليزفّها الى آباقا ملك الملوك . وكان هولاكو ابوه قد وجّه السفراء منذ زمان في طلبها ولما وصلوا الى قيسارية وردّهم نعيُ ملك الملوك فلم يَرَوا ان يرجعوا .

وفي هذه السنة انهزم السلطان عزّ الدين من قسطنطينية وارسل يخبر آل بركات المجاورين فوافوا ومضوا به خفيةً وما برح مقيماً هناك حتى اليوم .

وفي صيف السنة المذكورة بلغ الامر الى علاء الدين صاحب الديوان بان يتولى بغداد مستقلّاً . وما عتم ان ورده خبرٌ مُبهمٌ مفاده ان اخاه شمس الدين صاحب الديوان قد قُبض عليه في الاردو . وعند ذاك قبض قرابوغا شحنة بغداد على علاء الدين في ٢٠ آب واعتقله في داره وارسل فاخبر اخاه . ثم ورد الامر بان يسافر مكرّماً مع اسحق الشابّ الارمني كاتب قرابوغا ومع رجل معدي يقول انه سار ليهزم علاء الدين . ولما وصلوا الى الاردو قرّر المعديّ البدويّ ان اسحق عمه ان يكذب فصدر الامر بقتلها كليهما . ومن ثم اخذت شؤون النصارى في التبلبل .

وفي السنة ١٥٧٧ لليونان (١٢٦٦ م) سيّر البندقدار صاحب مصر الى هيتوم ملك قيليقية ان يدخل في طاعته ويؤدي له الجزية ويفتح طريق سورية ويمكّن الناس من مشترى القمح من بلاده . فلم يتيسّر للملك هيتوم ان يابى طلبه لخوفه من التتر . فاستعدّ البندقدار للقدوم الى قيليقية . اما ملك الارمن فسارع الى بلاد الروم يستنجد بنغجي زعيم التتر فقال له نغجي : لا يمكنني ان اجيء دون امر ملك الملوك . وفيما كان ينتظر الجواب هجم المصريون على قيليقية وكان هيتوم غائباً . فبادر اليهم اخوه قنطسطيل وولداه (٥٢٣) وزعماؤه والتقوا عند حجر سروند فانكسر الارمن واعتُقل لاون ابن هيتوم الكبير يوم الثلاثا ٢٤ آب من هذه السنة وقتل البارون تورس ابنه الصغير وانهزم سائر زعمائه . ودخل المصريّون وعاثوا في قيليقية كلها وقتلوا وسبوا . واحرقوا سيس وقوّضوا

شيئاً للكرمي وسار بكتاش . ولم يعبث .. سيئان بـ وهما . كنيسة والده ... وكنيسة مار يوحنا لان بناءها عالٍ من الخشب . وقد احتملوا المعمودية واياس وآطنة وأجلوا جمًّا غفيرًا من البنين والبنات . ولم يصلوا الى طرسوس . واحرقوا دير الباقسماط وأبقوا على دير كويحات لانهم شاهدوا فيه راهباً يتكلم في اللغة العربية وقد توسل اليهم فانحنوا عنه وعن ديره . واقام المصريون في قيليقية عشرين يوما ينهبون ويحرقون .

وبعد خروجهم وصل الملك هيتوم وقد استصحب عسكرًا من التتر ومن الروم . غير ان هولا . بدلًا من ان يساعدوه اشتغلوا بنهب ما تركه المصريون. وبعد ذلك كله شرع هيتوم يفتكر في نجاة ابنه ووعد المصريين باموالٍ وحصونٍ ثمناً له . فاجابه البندقدار انّ لي صديقاً عند التتر اسمه سنقر الاشقر فخلّصه وسيّره اليّ وخذ ابنك .

وفي هذه السنة حاول ركن الدين صاحب بلد الروم ان يهلك بروانة الذي وطّده في التخت الملكيّ وساعده كل المساعدة في تعزيز اعماله . فلمّا اطّلع بروانة على ذلك أخبر زعماء المغول وكان ركن الدين عندهم فاشاروا الى احدهم فقصد خيمته وهو متكئ هناك وألقى وترًا في رقبته (٥٢٤)وخنقه ومضوا به فدفنوه . واقام التتر بدلًا منه غياث الدين وعمره يومئذٍ اربع سنين.

وفي هذه السنة استصدر ناصر الدين بابا امرًا من ملك الملوك وبطش بزاكي الاربيليّ وتولى الموصل .

وفي السنة ١٥٧٨ لليونان (١٢٦٧ م) وصل الملك هيتوم الى الموصل وارتحل الى خدمة الملك اباقا ويكنى امامه ابنه المأسور في مصر وطلب سنقر الاشقر ليخلّص به ولده . فأشفق عليه وقال له : ان سنقر ليس حاضرًا الآن فارجع انت الى بلدك وانا ابعث فأحضره وارسله اليك . فتركه هيتوم وعاد .

وفي تلك الغضون اشتهى بروانة المتولّي تدبير مملكة بلد الروم ان يصاهر الملك هيتوم ويطلب ابنته . فقاوض الراهب فرسيغ الارمني مندوب الملك لدى التتر . وهذا الجاهل اشار عليه بانه متى مرّ هيتوم ببلدك فاذهب الى زيارته واعرض عليه طلبك فلن يردّك خائباً . ولما عاد الملك من الاردو ووصل الى فندق القراطي وبات فيه ليلته قصده بروانة في زعماء دولته وقدّم له هدايا

ثمينة جداً وطلب ابنته . فخاف الملك وظنّ انه ان رفض طلبه يترصده في الطريق ويؤذيه فوعده بذلك وعاد الى بلده . وظلّ بروانة يراجعه حتى قال له الملك : لا يمكن ان نصنع العرس ما دام اخو البنت مأسوراً . فاصطبر بروانة حتى عاد الاخ الى بيته وزال المانع . غير ان الابنة توفيت وهلك برسبع الراهب كذلك .

وفي صيف السنة ١٥٧٨ لليونان (١٢٦٧ م) ألقي القبض على عَلَم الرئاسة الكاتب القبطي في الاصل ومات في الحبس يوم الثلاثا ٢٦ ايلول . وفي السنة ١٥٧٩ لليونان (١٢٦٨ م) وصل سنقر الاشقر متى سترقند وأرسل الى الملك هيتوم فوجهه الى مصر .

وفي هذه السنة (٥٢٥) في ايام الصوم الاربعيني قبض مار دنحا جاثليق النساطرة على رجل تكريتيّ سبق فنادى بالاسلام وحاول ان يغرّقه في دجلة . فثار ثائر أهالي بغداد وراجعوا علاء الدين صاحب الديوان فوجّه الى الجاثليق بعض الزعماء يطلب ذلك التكريتيّ فابى الجاثليق ان يسلّمه . فهاج الاهالي وأضرموا النيران في عتبات ابواب القلّاية وتسلّقوا الجدران يحاولون الفتك بالجاثليق . فسمع صاحب الديوان وارسل فاستحضره الى داره خفيةً من جهة النهر وأنجاه . ثم أرسل الجاثليق الى الاردو يشتكي فأقبل السفراء وتقلوه الى هناك ورفع الشكوى على الاهالي فلم يكترث له احد فترك الاردو وانطلق الى اربيل وابتنى كنيسة في قلعتها واستقرّ بها .

فتح انطاكية

وفي حزيران السنة المذكورة وجّه البندقدار صاحب مصر جيوشه الى انطاكية واحتلّوها بالسيف اذ لم يكن فيها حامية ولم يفتكر مَن فيها ان يسلّموها صلحاً . فدخلها المصريون واجهزوا على رجالها قاطبةً وقوّضوا كنائسها الشهيرة وأجلوا النساء والبنين والبنات وتركوها خالية خاوية حتى يومنا .

وفي صيف هذه السنة ألقي القبض على مار حنانيشوع اسقف الجزيرة وصدر الامر بقتله . فسطحوه وجعلوا فوقه حجراً ضخماً وفلقوا هامته وعلّقوها على باب المدينة . تلك كانت خاتمته الفظيعة بسبب تدخّله في الشؤون الدنيوية

ومحاولته ان يتوج امبرة فضلاً عن انهماكه في الملاذ .

وفي تلك الاثنا . وجه المصري الى هيتوم ابنه لاون مكرماً ووصل الى قيليقية في تموز السنة المذكورة فابتهج قلب ابيه وفرح المسيحيون جميعاً بقدومه . ثم توجه الملك هيتوم الى بغداد ليشكر لملك الملوك نجاة ابنه واستقال من السلطنة بسبب شيخوخته وطلب (٥٢٦) ان يكون ابنهُ متولياً المملكة . فقال له الملك : متى حضر الينا ولّيناه المملكة .

وفي السنة ١٥٨٠ لليونان (١٢٦٩ م) حدثت زلزلة هائلة في قيليقية في الساعة الاولى من ليلة الاربعاء . واخربت قلعة سروند وقلعة عماوس وقلعة الحجر الأصفر ودير بالوط الملك وهو اكبر اديار الارمن . وهلك في تلك الزلزلة زهاء ثمانية آلاف نسمة .

وفي تموز توجه الملك لاون ابن الملك هيتوم الى خدمة ملك الملوك فرحب به ترحيباً جميلاً وفوّض اليه سياسة مملكة ابيه .

وفي السنة ١٥٨١ لليونان (١٢٧٠ م) شخص صاحب مصر الى فلسطين وحاصر حصن الاكراد واخذه عنوةً . ولم يقتل احداً بل اطلق الحرية لمن يريد الاقامة به او الذهاب الى طرابلس .

وفي خريف السنة ١٥٨٢ لليونان (١٢٧١ م) توفي هيتوم الملك المؤمن بدمّلة خرجت في صدره . واجتمع الاساقفة والزعماء في طرسوس وتوّجوا ابنه لاون ملكاً يوم عيد الدنح (الظهور) .

وفي مدخل الصوم وثب الاسمعيليون على علاء الدين صاحب الديوان في بغداد وهو راكب وضربوه بالسكاكين ولم يقتلوه فقبض عليهم وقطّعت اعضاؤهم واذاع العرب بان المعتدين كانوا نصارى وقد ارسلهم الجاثليق . بناء عليه أُلقي القبض على الاساقفة والرهبان والأعيان وحُبسوا في بغداد وقبض قتولو بك كذلك على الجاثليق وعلى اساقفته في اربيل وعذّبوهم الصوم كلّه حتى صدر بعون الله تعالى الامر من الاردو باعتاقهم جميعاً . وبعد هذا سار الجاثليق الى مدينة اشنو باذربيجان واقام بها .

وفي السنة ١٥٨٣ لليونان (١٢٧٢ م) حاول زعماء اليونان في قيليقية ان يغدروا بالملك لاون . وما ان شعر بالدسيسة حتى قبض على البارون كبيرهم

فسمع رفاقه وانهزموا الى احدى القلاع وارسلوا الى بلاد الروم (٥٢٧) يطلبون نجدة ليتسلموا القلعة . اما الملك فبادر الى القلعة وحاصرها ووثب الارمن الذين فيها الى الزعماء اليونان وسلموهم الى الملك فقضى عليهم جميعاً وأهلك مثلهم بهرام في قلعة عين زربة . على ان اليونان لما انهزموا الى تلك القلعة استدعى الملك بطريرك انطاكية اليوناني[1] وسيّره اليهم واقسم لهم إن انحدروا فان يمينهم غير لان البطريرك لما ذهب اليهم قال لهم : امكثوا مكانكم والا فانكم تهلكون جميعا . ثم انقلب وقال للملك : انهم لم يطيعوني ولم ينزلوا . فشعر الملك بما جرى وبعد ما بطش بهم قبض على البطريرك كي يوجهه الى قسطنطينية فيقضي الملك بينهما . ولما سلّمه الى الجنود ليمضوا به الى العاصمة ووصلوا الى مدينة اياس نصبوا له خيمة على ساحل البحر وتركوه وقصدوا المدينة ليتباعوا لهم طعاماً واستغرقوا في شرب الخمرة الى الليل فارسل البطريرك الى بعض الملّاحين اليونان الذين كانوا قريبين واستدعاهم اليه وجعل يبكي امامهم وصرّح لهم بان الجنود الارمن انما يريدون اهلاكه متى ركب البحر ولن يوصلوه الى قسطنطينية . فاشفقوا عليه واركبوه سفينتهم الصغيرة ومضوا به الى بلاد الروم التي كانت في حوزة الاتراك .

وفي هذا الزمان زفّ لاون ملك الارمن ابنته الى ابن بروانة بدلاً من اختهِ التي رفض ابوه ان يزفّها اليه . وعقد الفريقان صلحاً ما بينهما وهميًا .

وفي السنة ١٥٨٤ لليونان (١٢٧٣ م) حدثت زلزلة مريعة في مدن اذربيجان ولا سيما في تبريز ليلة الاربعاء ١٨ كانون الثاني . وقوّضت الدور والمساجد وقمم الابراج . وقد صان الله تعالى كنيستنا وظلّت الصلوات تقام فيها بحضور اليونان والارمن والنساطرة والسريان . اما ساثر (٥٢٨) الاهالي العرب فقد غادر ربوات منهم المدينة ونصبوا الخيام في الجنائن واقاموا هناك نحو شهرين ثم عادوا الى بيوتهم . ومات في تلك الزلزلة زهاء مائتين وخمسين نسمة من العرب .

وفي صيف تلك السنة اقبل كُتّاب سوريّة من عينتاب ومن البيرة الى بلد

---

١) افتيموس الاول (١٢٥٨ ؟ – ١٢٧٣) .

قلودية من ... حص ... كما ... هي عادة البلد ثم نقلوا واجلوا الاهالي قطيعة ... وصبياناً وعادوا ولم يبيتوا خيفة ان يدركهم جيش المغول .

وتأهبنا في تلك الايام للذهاب الى دير مار برصوما ولم نشعر بتلك النائلة حتى اشرفنا على البلد فرأيناه مثل كوم اكتسحه البَرَد واقمنا في دير سرجيس حتى وافى نحو خمسين راهباً مسلحين وسرنا معهم الى الدير المذكور .

وفي السنة ١٥٨٥ للیونان (١٢٧٤ م) انحدر ملك الملوك في جيوش كثيفة الى بغداد وحدث فيها غلاء وقلّت الغلّات وظهر الجراد كذلك .

وفي ايّام الصوم الاربعينيّ من تلك السنة كلف راهب نسطوريّ من دير مار ميخائيل الذي بجانب الموصل بامرأة عربيّة . ولمّا فُضح امره جاهر بالاسلام فاغتمّ المسيحيّون غمًّا شديدًا . واستفظع رهبان ذلك الدير وعمّ الراهب المذكور ما جرى ولم يطيقوا احتمال ذلك العار والاحتقار فارسلوا الى طرغاشي قائد الجيش المغوليّ وطلبوا حضوره فاقبل الى الموصل وقبض على ذلك الراهب الذي أسلم يريد البطش به . فشعر الاهالي المسلمون وتحشدوا واحتشدوا عند باب البلاط حاملين العصيّ والمصابيح وتهدّدوا القائد المغوليّ مصرّحين له بانه ان لم يطلق ذلك الراهب فتكوا به وبمن معه . فخاف القائد واطلقه . فاخذوه واركبوه وطافوا به في المدينة وشمل جميع النصارى الحزن اكثر من الاوّل .

وفي تلك الايّام شاع نصارى اربيل (٥٢٩) ان يختفوا باحد الشاطئين وعرفوا ان العرب متحفزون ليزعجوهم فارسلوا يستدعون الى مساعدتهم بعض التتر النصارى المجاورين . فاقبلوا ووضعوا الصلبان في رؤوس الرماح . وخرج مطران الناطرة وجميع الشعب يتقدّمهم اولئك التتر راكبين . لمّا قربوا من القلعة احتشد جماهير العرب وتناولوا الحجارة وجعلوا يرجمون التتر والنصارى معاً . فتشتّت شملهم وانهزم كلّ النصارى وظلّوا اياماً لا يجسرون ان يخرجوا ظاهرًا . وقد امتعض المسيحيّون في كلّ البلاد بسبب ذلك ايّ امتعاض .

وفي هذه السنة توفي خواجا نصير الفيلسوف الفارسيّ الذي امتاز بالفضل في كلّ العلوم الحكميّة ولا سيّما في العلوم الرياضيّة وآلات الرصد والدوائر النحاسيّة الكبرى ففاق فيها ما اقامه بطليموس في الاسكندريّة . واختبر سير الكواكب واتقنه . واجتمع كثير من الحكماء من مختلف البلاد واقبلوا الى

مراغة باذربيجان . وكانت جميع اوقاف المساجد والمدارس في بغداد وآثور تحت حكمه يوزّع منها الاجور على المعلّمين والطلّاب الذين لديه . ففي هذه الفضون لما قصد بغداد ليشرف على تلك الاوقاف ادركه الأجل . واذاع بعضهم انه مات مسموماً . وقد صنّف كتباً جمّةً في المنطق والطبيعيات والالهيّات واوقليدس ومجسطي بدقّة تامّة . وله كذلك كتاب الخلاق في الفارسيّة جمع فيه نصوص افلاطون واريسطو في الفلسفة العمليّة . وكان متشبّثاً بآراء الفلاسفة الاقدمين يعارض معارضة قويّة في تصانيفه كلّ من يخالفهم .

وفي السنة ١٥٨٦ لليونان (١٢٧٥ م) توجّه بعض الاشرار ليلًا في كانون الاوّل وقرعوا باب يهوديّ صائغ في الموصل . فقال لهم ماذا تريدون ؟ قالوا : اننا شبّان وقد قصدناك لتعطينا نفقةً . فاستخبرهم (٥٣٠) قائلًا : كم تريدون ؟ قالوا : عشرين درهماً . فدفع لهم ما طلبوا من ثقب الباب . لكنّهم رفضوا وقالوا له : افتح لنا الباب . وظلّوا نحو ساعة يتخاصمون ثم تسلّق بعضهم السطح وانحدروا الى البيت وفتحوا الباب ودخل اصحابهم كذلك . وجعلوا يضربون اليهوديّ حتى دفع لهم كلّ ما كان لديه . ولمّا حاولوا الفتك به ألقت امرأته بنفسها عليه وتوسّلت اليهم ان يشفقوا على شبابه ويقتلوها عوضاً عنه . غير ان اولئك الجناة القساة القلب قالوا لها : اننا سنقتلك ونقتله كذلك . وبعد ما ذبحوا زوجها طعنوها بالسكاكين وتركوها على آخر رمق وانصرفوا في المال الذي اخذوه . ولمّا اصبح الصباح اقبل بعض الناس وشاهدوا اليهوديّ مذبوحاً وامرأته تنازع فاخبرتهم بما جرى وانطفت انفاسها في الساعة التاسعة .

وتوجّه في تلك الفضون نحو ثلاثين رجلًا من فقراء العرب من اطراف سورية الى قيليقية يريدون زيارة قبر الخليفة المأمون المدفون في طرسوس وتبادر الى الظنّ ان البندقدار صاحب مصر هو معهم وقد تنكّر يريد جسّ سائر الدول . فقبض عليهم صاحب قيليقية وزجّهم في قلعة كبيرة ولمّا انتشر الخبر في مصر جعل الوفود يتقاطرون في طلب المحبوسين وغلب على الظنّ ان ما قرّره الارمن حقيقيّ وأبى لاون الملك اطلاقهم . عند ذلك احتشد خمسمائة فارس من الجيش المصري وزحفوا الى قيليقيا ايام الصوم الكبير عام ١٥٨٦ لليونان (١٢٧٥ م) فقاومهم الارمن وهزموهم . فاحتشد تكراراً نحو ثمانية آلاف وباغتوا البلد

شخص احد ووصلوا الى اياس في فجر الاثنين من اسبوع العجائب ٢٦ آذار (٥٣١) وفتكوا بمن وجدوا فيها وكان اغلب اهاليها منهزمين ومحتشدين في مكان قريب خوفاً من المصريين . غير ان اللصوص الفريج وثبوا اليهم ونهبوا كل ما لهم وانتزعوا ثيابهم كذلك ولكنهم لم يقتلوهم .

اما المصريون فسارعوا من اياس الى المصيصة يوم الثلاثا وفتكوا باهاليها فتكاً ذريعاً واحرقوها باسرها . وانتقلوا الى جشرا وتفرّقوا في ضواحيها وسار بعضهم الى طرسوس وتصدوا برجها يوم السبت عيد العرب واذّنوا فيه ثم تبسّطوا حتى قوزيقس يقتلون وينهبون ويحرقون . وتوجّه بعضهم الى سيس ولم يجدوا فيها خلقاً اذ كان الاهالي جميعاً متحصّنين في القلعة فاحرقوا بعضها . وقد قتلوا خمسة وعشرين راهباً في دير البقسماط في جملتهم الربان سليمان الشيخ الجليل وكاتب اسرار البطريرك اغناطيوس المتوفى واحرقوا الدير المذكور ودير كويخات وسائر اديار الارمن واليونان ومحقوا دير بطريركنا الواقع في لحف سيس . اما البطريرك فانهزم الى قلعة بهجا وانزوى هناك حتى زال الغضب . وظلّ المصريون هناك حتى آخر الاسبوع التالي لعيد القيامة ثم انصرفوا في غنائم وافرة . وأربى عدد القتلى على الستين الفاً . اما النساء والصبيان الذين استاقوهم عبيداً فلا يُحصى عددهم . وكان في ذلك البلد زهاء عشرة آلاف من التركمان تصدّوا على المسيحيين فلمّا رجع المصريون أجبز الملك عليهم قاطبةً واستعبد بعضهم ونهب كل مالهم .

وفي تلك السنة مات البرنس بوهيمند امير طارانطس وخلفه ابنه الفتى ووجّه الزعماء فاحضروا (٥٣٢) سير هنري والد صاحب تبرس الشيخ الزين وفوّضوا اليه تدبير الفتى وسياسة المملكة .

(يتبع)